

قصاص الأثر

الفصل الأول

1- ساكنة الكهف

كانت "السعلاة" (أنثى الغول) تعيش في بعض الأزمان السالفة على بعد عشرين ميلاً أو تزيد عن مدينة بنارس: إحدى مدائن الهند المشهورة.

وكانت هذه السعلاة قد اتخذت مأواها (مسكنها) في أحد الكهوف (البيوت النتقورة في الجبال). وعاشت السعلاة في مغارتها المظلمة الواسعة عيشة راضية (سعيدة). وقد خلقها الله سبحانه لتكون آية من آيات العجائب؛ فجعل لها وجه فرس، وجسم فتاة؛ ووهب لها القوة والبأس والشجاعة، فأصبحت تصارع النمرة فتصرعها، وتحارب الجيش فتقهره (تغلبه) بمفردها، وتهزم أبطاله وحدها.

وكانت هذه السعلاة القوية الباطشة الغلابية، تعيش على ما تقتربه من الدواب والأدميين الذين يوقعهم في قبضتها سوء الحظ، ويرميهم في أسرها نكد الطالع (سوء البخت، والطالع هو ما يتفاعل- أو يتشام- به بعض الناس؛ من النجوم).

وكانت تتربص الدوائر بعابري السبيل (تترصد للسائرين)، وتقطع الطريق على الذاهبين والعائدين، وتكمن لهم في جنبات الطريق، أو تختبئ بين أشجار الغابة الضخمة، ثم تنقض عليهم فتقتربهم وتعيش على لحمهم أياماً، حتى إذا نفذ رادها (فرغ طعامها)، بحثت عن فرائس جديدة أخرى.

2- الدرويش الهندي

وفي ذات يوم وقع- في قبضة هذه السلعاة) فتى من دراويش الهند. وكان هذا

الفتى قد خرج لسوء حظه وحيداً، وسلك تلك الطريق إلى مدينة بناريس، وهو يجهل أن السلعة كامنة له فيها.

ولم تكذ السلعة تراه حتى أمسكت به وحملته، ثم أخذت تعدو في سرعة لا يتصورها العقل، حتى إذا بلغت كهفها المظلم الرحيب (الواسع)، أودعت (الدرويش) وضعته) فيه، لتأكله متى جاعت.

وكان ذلك الدرويش في مقتبل شبابه، وهو يجمع إلى جمال الخلق حسن الخلق. وقد أعجبت السلعة بأدبه، وحسن حديثه وبراعة منطقته، فسألته قائلة:

"أفترضى- لو أبقيت على حياتك- بالزواج بي، أيها الفتى الدرويش؟"

ولم يكن للدرويش بدّ من تلبية هذا الاقتراح، ليأمن على نفسه من الهلاك.

وقد رأى بعد أن أطال التأمل، وأنعم (دقق) النظر- أن يختار لنفسه أهون الشرين، ويرضى باحتمال أخف الضررين. وهكذا تم زواجه بالسلعة واشترى حياته بهذا الثمن.

3- بعد الزواج

ومرت الأيام على ذلك الزواج وتخلقت السلعة الشرسة، بأخلاق زوجها الوديعة الدميئة (الليينة)، وأصبحت على مر الزمن أنيسة لطيفة، وكفّت (امتنعت) عن افتراس الناس، وعافت نفسها لحومهم (كرهتها)، وتغيّرت عاداتها كلها شيئاً فشيئاً، فأصبحت مثال الوداعة والوفاء، بعد أن كانت مثال الشراسة والغدر.

أصبحت السلعة مثل زوجها عاقلة رشيدة، تكره الإساءة، وتنفر من الأذى. وقد فرح الدرويش بهذه النتيجة السارة، وابتهج لهذا النجاح العظيم.

4- حذر السلعة

ولكن السلعة على ذلك لم تكن مطمئنة إلى ثبات زوجها على عهده، وبقائه على الوفاء لها، بل كانت- على العكس من ذلك- واثقة من تبرمه (ضجره وضيق صدره) بهذا الأسر، متنبئة من تطلعه إلى الفكاك منه، وشغفه بالحرية، وتحينه (ترقبه) كل فرصة تمكنه من الخلاص، وتتيح له الفرار (تيسر له الهرب) ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومن ثم كانت السلعة شديدة الحذر، دائبة الخوف، تتوقف فراره يوماً بعد يوم، وترقبه بين ساعة وأخرى، حتى لا يتحين منها غفلة، فيرجع إلى بلده آمناً مسروراً. وكانت لذلك تسدّ مدخل الكهف بصخرة كبيرة كلما خرجت منه، حتى إذا أحضرت ما يكفيها ويكفيه من الزاد، فتحت الكهف واطمأنت إلى بقاء زوجها بجانبها.

وهكذا أصبح الدرويش التاعس أشبه بالعبد الرقيق (المملوك) الذي كتب عليه أن يقضي بقية عمره في سجن لا فكاك له من أسره، ولا مطمح (لا مطمع ولا أمل) له في الخلاص منه.

5- المولود الجديد

وكانت السلعة تقضي نهارها متربصة بالقوافل (الجماعات المسافرة)، الذاهبة والآيبة (الراجعة)، حتى إذا وقعت إحداها في قبضتها، أخذت منها كل ما تريده من الزاد- طواعية أو كرهاً- دون أن تمسّ أحداً منهم بسوء. ثم تعود إلى زوجها بكل ما جمعته من لذائذ الأطعمة وأطيب الفاكهة.

وانقضت على ذلك شهورة عدة، ثم وضعت السلعة طفلاً جميلاً الشكل، بهي الطلعة، تلوح في نظراته- من الشجاعة- دلائل وعلامات، ويبدو على أساريره (خطوط جبينه)- من الذكاء- مخايل (أمارات). ومرّت السنون متعاقبة، فكبر الطفل، وأصبحت المخايل- التي كانت تلوح على وجهه- شمائل (صفات) في نفسه. واكتملت مواهبه (تمت مزاياه التي وهبها الله له)، واشتد ساعده، وأصبح على مر الأيام مثلاً للشجاعة والقوة والنشاط، برغم نشأته في ذلك السجن

المظلم. وقد فرحت السلعة بولدها، وأحبته حباً شديداً، وضاعفت عنايتها بأبيه الدرويش، ولم تدخر وسعاً في توفير أسباب السعادة لكليهما معاً.

6- حوار الوالد وولده

ولم ينس الدرويش وطنه- طوال هذا الزمن الذي قضاه في الكهف- وكان يتطلع دائماً إلى الحرية، فما زال يفكر فيها، ويتحسّر على فقدانها، حتى كاد الهم يقتله، لولا أمل أتاحه ولده، فانتعش قلب الدرويش وعاوده الرجاء بعد اليأس، وأدرك أن ظفره بالحرية قريب، وأن خلاصه من الأسر وشيك (سريع).

فقد قال له ولده ذات يوم:

"خبرني- يا أبتاه- لماذا اختلف وجهانا عن وجه أمي"؟

فأجابه الدرويش قائلاً: إنما اختلف وجهانا عن وجه أمك، لأننا آدميان، أما أمك فهي سعادة من الغيلان.

7- صخرة الكهف

فقال الغلام لأبيه:

فما بالنا (ما شأننا) نعيش مع هذه الغول في مثل هذا الكنف المظلم، وما بالنا لا نخرج منه لنعيش بين رفاقنا وأبناء جنسنا من الأدميين"؟

فأجابه الدرويش: "إنما اضطررنا إلى ذلك اضطراراً، فقد سجنتنا أمك السعادة في هذا الكهف، وسدّت منفذه بهذه الصخرة الهائلة التي لا يقدر على تحريكها أحد، ولولا ذلك لتم لي الفرار- من هذا السجن البغيض- منذ زمن بعيد".

فعجب الغلام مما سمع، وأسرع إلى الصخرة ودفعها بيده دفعة قوية، فتدحرجت على الفور وانفتح الكهف بعد أن كان مغلقاً.

8- في الهواء الطلق

وكانت مفاجأة سارة مدهشة، ولكن الدرويش لم يكذب يخرج من الكهف المظلم حتى بهر عينيه الضوء (غلبهما النور)، فكاد يذهب بنورهما. واختلج بصر الدرويش، وأصبح شبه أعمى؛ فأغمض عينيه طويلاً، ثم فتحهما بعد أن عصب رأسه، ثم رفع الغطاء عن عينيه قليلاً، حتى ألفت عيناه الضوء بعد جهد جهيد (بعد تعب شديد).

وقد حمله الصبي، وانطلق يعدو به في سرعة نادرة، حتى جهده السير (أتعبه المشي)، وأضعف قواه. فجلس مع أبيه ليسترخ من عنائه، ويجدد من قوته ما يمكنه من استئناف السير.

9- مقدم السلعاة

وإنهما جالسان، إذ طرق أسماعهما صوت أقدام السلعاة، وهي تنهب الأرض نهباً، وتطوي الطريق طياً، في اقتفاء أثرهما (السير في طريقهما). ولم تكذ تراهما حتى صاحة هوي مغضبة:

"الويل لك أيها الزوج الجاحد! والويل لك أيها الطف العاق! أكذاكما تجزيانني على صنيعي (معروفي) أقبح الجزاء؟"

خبراني: ما الذي حبب إليكما الهرب، وأغراكما بالفرار؟ ألم أتخذ لكما فراشاً وثيراً (ليناً) من ورق الشجر والطحلب (الخضرة التي تنبت على وجه الماء)؟ ماذا أعوزكما (احتجتما إليه) من طعام أو شراب؟ ألم أحضر لكما أشهى ما يشتهيهِ إنسان من أطايب الثمار ولذائذ الفاكهة! فقال لها الغلام:

لقد صدقت يا أماه في كل ما نطقت به، ولكنك حرمتنا شيئاً لا تطيب الحياة إلى به، فحجبت عنا ضوء الشمس، وسلبتنا نعمة الحرية، فلم نعم بالهواء الطلق والنور البهيج، وهما فيما نرى أحب إلينا من الطعام والشراب.

فقالَت السلعة: ارجعا إلي آمنين، فقد منحتكما ما تطلبان، ولن أضنّ (لن أبخل) عليكم بشيء مما تحبان!

فاضطرا إلى العودة مع السلعة مرغمين. وقد برّت السلعة بوعدها، فحطمت الصخرة التي كانت تسد بها منفذ الكهف، وأذنت لهما في أن يجوسا (يمشيا) خلال الغابة وفق ما يحبان، على أن يكفا بعد هذا اليوم عن التفكير في الهرب.

وهكذا أطلقت لهما حرية السير، وظلّت ترقبهما دون أن تشعرهما بذلك. فكانا لا يجتازان في تجوالهما (سيرهما) أكثر من ميل بعيداً عن الكهف، حتى يسمعا وقع أقدام السلعة وهي قادمة في أثرهما (خلفهما).

10- في ظلام الليل

وقد عرف الغلام أن سلطان أمه ونفوذها لا يمتدان إلى أكثر من فرسخين ينتهيان بالنهير، وثلاثة فراسخ تنتهي بالجبل من الجهة الأخرى. وظل يعدّ عدته للهرب، حتى إذا رأى الفرصة سانحة لتحقيق إربته، وإنقاذ رغبته، صبر على السلعة حتى إذا استغرقت في النوم، خرج الغلام مع أبيه في ظلام الليل من الكهف زاحفين. وظلا يجدان السير حتى اقتربا من النهر، وحينئذ سمعا صوت أقدام السلعة وهي تطوي الأرض طياً، وتتهب الطريق نهباً؛ فلم يثن ذلك من عزم الغلام (فلم يرده عن إرادته)، بل ضاعف من همته، وشحذ (قوى) من عزيمته، فحمل أباه على ظهره، وظل يعدو (يجري) به مسرعاً حتى بلغ النهر، فسبح فيه حتى توسطه، وأصبح بمأمن من بطش السلعة. ولم تكده أمه ترى ذلك حتى استولى عليها الجزع فصاحت مولولة:

إلي.. إلي أيها العزيزان!"

فقال لها الغلام: كلا يا أماه، لا سبيل إلى ذلك، فنحن من أبناء آدم، وأنت من بنات السعالى، وما أجدرنا نحن أن نعيش بين أبناء جنسنا وادعين (مرتاحين).

11- الطلسم

فوقفت السلعاة على شاطئ النهر محزونة باكية، وركعت أمامها متوسلة ضارعة، وظلت تسحّ دموعها (تسكبها وتصبها صباً متتابعاً) على صفحة المياه الجارية، فلم تجد ضراعتها وبكاؤها، وظل ولدها سابحاً حتى بلغ الشاطئ الآخر، فيئست من عودتهما أو اللحاق بهما، ورأت أن البكاء والجزع لن ينفعها، فصاحت في ولدها قائلة:

"إن حُبِّيك (حبي إياك)، وإخلاصي لك، وشفقتي عليك، لتأبى عليّ أن آخذك بإساءتك، أو أحاسبك على فرارك، وإني لأخشى عليك أن تفارقني من غير أن أهدي إليك هدية تنفَعك في قابل أيامك. فخذ معك هذا الطلسم (الشيء الخفي) العجيب، فإنه سيكون أنفع شيء لك في دنيا الأناسي (بني آدم) التي اعترمت أن تعيش فيها مع أبيك".

ثم قذفت إليه بالطلسم قائلة: "إليك يا ولدي هذا الحجر، فخذهُ ثم علقه في عنقك تميمة (حافظاً يصونك)، فإنك بقوة سحره قادر على اقتفاء كل أثر، ولن تضلّ في تعرفه، ولو مضى عليه اثنا عشر عاماً كاملة، وستوفق إلى تتبع آثار الأقدام مهما تكن قد عفت (ذهب أثرها) وضاعت معالمها، واستحال على غيرك أن يهتدى إليها".

فشكر لها ولدها ذلك الصنيع، وتلقف منها الطلسم، ثم علقه تميمة في عنقه واحتفظ بهذه الذخيرة النفيسة. وسار مع أبيه في طريقهما إلى بنارس بعد أن ودّعا تلك السلعاة الكريمة الوداع الأخير.

الفصل الثاني

1- في قصر الملك

ابتهج الدرويش وولده بما ظفرا به من نعمة الحرية، وزاد ابتهاجهما تلك الهدية النفيسة التي أهدتها السلعاة إليهما. وما زالا يجدان السير حتى بلغا المدينة. وكان أول خاطر مرّ بذهن الغلام هو أن يذهب إلى ملك بنارس ليحرس كنوزه ونفائسه من عدون اللصوص، بعد أن ظفر بالطمس العجيب.



وقد أسرع إلى القصر الملكي، وقابل وزير الملك، وأفضى إليه برغبته، واستعداده لحراسة الكنوز الملكية من كل عاد (معتد)، لأنه خبير باقتصاص الأثر (تتبعه) خبرة نادرة لا يشركه فيها أحد من الناس.

فقال له الوزير: "أصادق أنت فيما تقول؟"

فأجابه الغلام: "إي وربّي، إنه لحق لا ريب فيه، وستثبت لك الأيام أنني قادر على اقتفاء أثر اللصوص وتعرّف أماكنهم، والاهتداء إلى مخابئهم وأوكارهم (مساكنهم)، مهما

تقننوا في إخفاء آثارهم وتضليل الباحثين عنهم. فهل تتفضل يا سيدي فترفع أمري إلى جلالة الملك لعله يأذن في في خدمته؟"

2- أجر القصاص

فقال له الوزير: "ما أرى جلالة الملك إلا مرحباً بخدمتك إياه ليأمن على كنوزه عادية اللصوص (شرهم)".

ثم ذهب الوزير إلى ملك بنارس فأخبره بنبا القصاص. ولا تسل عن فرح الملك بهذا الخبر، وابتهاجه لسماعه؛ لأنه كان مشهوراً بالغنى والبخل معاً، ولم يكن ينغص عليه راحة باله، ويكدر صفو حياته، ويقلق نومه، إلا خوفه على كنوزه ونفائسه التي لا تقوم (لا تقدر) بمال. وكان يسهر ليلة ويظل نهاره في حراستها حتى لا تمتد إليها أيدي اللصوص. فلا عجب إذا رأى في ذلك القصاص ضالته التي ينشدها (حاجته التي يطلبها) وأمنيته التي تمنهاها.

وقال الملك لوزيره: "عد إليه فاسأله: كم يريد أجراً على ذلك؟"

فقال له الوزير: "لم يفتني ذلك، فقد سألته: كم يريد أجراً على حراسة الكنوز؟ فقال لي: إنه يطلب مائة دينار يومياً".

فاستكثر الملك هذا الأجر، واستدعى إليه الغلام ليساومه. فلما رأى إصراره على ذلك، لم ير بداً من إجابته إلى ما طلب ليريح باله من حراسة نفائسه وكنوزه الثمينة.

3- حوار الملك والوزير

ومر على ذلك شهر عدة، وذاعت شهرة هذا القصاص في جميع أرجاء المملكة؛ وعرف اللصوص قدرته وبراعته في اقتفاء الآثار، فكفوا عن كل محاولة لسرقة الكنوز، ولم يجرؤ أحد منهم على الدنو (الاقتراب) من مكانها.

أما ملك بنارس فلم يكن مرتاحاً إلى الأجر الفادح (الكبير المثقل) الذي يتقاضاه (يأخذه) القصاص، فدعا وزيره إليه ذات يوم وقال له: "إني لنا أن نثق بحديث هذا القصاص عن نفسه؟ وكيف نتعرف صدقه من كذبه؟ ومن يدرينا أنه بارع في اقتفاء آثار اللصوص كما يدعي؟ وما بالناس ننقده (نعطيه) كل يوم مائة

دينار، وهو لا يعمل شيئاً يسوّغ به هذا الأجر الفادح الذي يتقاضاه منا) يعني أنه لم يصنع شيئاً- في مقابلة ما يأخذه من المال الكثير- يجعله جديراً به، مستحقاً له)؟ ألا تراه يقضي يومه كله لاهياً بالشطرنج مع أبيه في حديقة القصر أمام النافورة (الفسقية التي يخرج منها الماء)، وهما يشربان أفخر الأشرطة، ويطعمان أشهى الأطعمة (يأكلان أذ المأكّل) ويلبسان أثمن الثياب، ثم لا يعملان بعد ذلك شيئاً؟ ألا ترى أن هذا الغلام قد خدعني وسخر من بلاهتي (ضعف عقلي)؟"

فقال له الوزير: "لن يعدو أمره أحد احتمالين: فهو إما صادق في دعواه أو كاذب، فإذا كانت الأولى فإن بقاءه لحراسة الكنز ضروري، وليس لنا عنه غنى؛ وإن كانت الثانية، فهو جدير بالهلاك جزاء خديعته ومكره".

فقال له الملك: "أليس يجدر بنا أن نبلو أمره (نمتحن حقيقته) ونخبر قوته لتتعرف قدرته من عجزه؟"

فقال له الوزير: "صدقت يا مولاي، وليس الرأي إلا ما تراه!"

4- السارقان

وفي الليلة التالية دبر الملك ووزيره خطة بارعة لسرقة الكنوز، فاقتحما مخابئها- في ظلام الليل- وأخذوا منها جمهرة (طائفة) عظيمة من اللآلئ النادرة والنفائس الثمينة، ووضعوها في حقائب؛ ثم حملها ودارا بها حول القصر مرات ثلاثة، ليضلل الباحثين عنها، ثم اجتازا بها حدائق القصر، وتسلفا حائطه، وارتقيا (صعدا) سلماً عالياً، ثم هبطا من سلم آخر إلى أحد الحقول، حيث فتحا صهريجاً (مخزن ماء) لا يعرفه أحد غيرهما، وأسقطا الحقائب كلها فيه، ثم عادا أدراجهما إلى القصر، وقد أيقنا أن ابرع قصاصي الأثر لن يهتدوا إلى ذلك

المخبأ الأمين القصيّ (البعيد).

5- بين يدي الملك



وفي اليوم التالي نهض الملك باكراً، وتظاهر بالغضب لاجترأ اللصوص (إقدامهم وهجومهم) على كنوزه الثمينة، وصاح صيحات مفزعة عالية، وهو يقول متوعداً ثائراً:

"لقد سرق اللصوص الخبيثاء جمهرة من أنفس الحلّيّ واليواقيت التي يزدان) يتزين ويتجمل) بها تاجي، ولست أدري: كيف استباحوا داري، وانتهكوا حماي) كيف اقتحموا بيتي الذي أحميهِ)؟ وما أعرف: أين كان حارس الكنوز الذي يتقاضى على حراستها أجراً فادحاً كل يوم؟"

وما إن أتم ملك بنارس قوله، حتى مثل الفتى (وقف) بين يديه، وكان قد علم هذا النبأ الهائل (الخبر المفزع)، وتألّم لسرقة هذه النفائس، فأسرع إلى القصر ثم قال له على الفور:

"هأنذا طوع يديك ورهن إشارتك، وقد جنّت إليك متسأذناً في اقتفاء أثر اللصوص) تتبع خطواتهم)".

فقال له الملك: "إنما ادخرتك (احتفظت بك) لمثل هذا اليوم، فإذهب موفقاً محموداً".

6- نجاح القصاص

وعاد قصاص الأثر إلى مستودع الكنوز الملكية، مقتفياً آثار اللصين، ثم دار حول القصر - كما دارا - مرات ثلاثة، ثم اجتاز الحدائق، وارتقى درجات السلم

الأول، وهبط دركات السلم الثاني، ثم سار ميمماً (قاصداً) الصهريج في وسط الحقل، الذي ألقى فيه اللسان ما سرقاه من النفائس، ثم أمر باستدعاء غواص ماهر لينزل إلى قاع الصهريج، ويحضر ما ألقى فيه من الحقائب!

وكان الملك وحاشيته (المقربون منه) وخاصة قومه يرقبون ذلك القصاص البارع، والدهش مستول عليهم، والحيرة بالغة منهم كل مبلغ.

وقد أدرك القصاص الذكي حقيقة السارقين، وعرف— من آثار أقدامهما— أنهما: ملك بنارس ووزيره، فالتفت إلى الملك قائلاً:

"لقد اهتديت إلى مخبأ النفائس المسروقة، وعرفت مكانه من هذا الصهريج. ولست أجهل أن سارق الكنز رجلان جليان رفيعا المنصب (المقام والعمل)، عظيما الخطر (القدر والشأن)".

وما انتهى القصاص من كلامه، حتى خرج الغواص من الصهريج حاملاً الحقائب المسروقة، واحدة في إثر الأخرى.

فدهش الحاضرون، وتملكهم العجب والسرور، فصفقوا مبتهجين، من وحنوا رؤوسهم أمام القصاص معجبين.

7- غضب الملك

ولا تسل عن غضب الملك وأمه، حين رأى نجاح القصاص في تعرف هذا المخبأ القصي (البعيد)، واهتدائه إلى النفائس المسروقة؛ واشتد به الغيظ لإخفاقه (خييبته) في خداع الفتى الذكي الذي أحبط (أفسد) مؤامرتة، وفضح أمرها، وكشف الستار عن دسيسته المستورة.

وقد أخرج الغيظ والغضب عن طوره (حدّه اللائق به)، وأنسياه الحزم والكياسة، وأبيا عليه أن يقف عند هذا الحد من الهزيمة المخزية، فهمس في أذن وزيره قائلاً:

"لا أزال أستكثر عليه الأجر الذي يتقاضاه مني كل يوم، ولا بد لنا من تعجيزه وإرهاقه (تكليفه ما لا يطيق)، واختبار مدى قوته في تعرف اللصين؛ فقد وقفت ببراعته وحذقه- فيما أرى- عند الاهتداء إلى مخبأ النفايس المسروقة. وما أظنه - بالغا ما بلغ من الفطنة والذكاء- قادراً على تعرف السارقين".

فقال له الوزير الأحمق: "ليس الرأي إلا ما يراه مولاي".

فالتفت ملك بنارس إلى قصاص الأثر، وقال له بصوت جهوري (عال):
"لقد نجحت أيها الفتى في تعرف المخبأ الذي أودع فيه اللصوص ما سرقوه من نفايس، ولم يبق عليك إلا أن تتعقب اللصوص، وتذكر لنا أسماءهم، لنؤمن بحذقك وجدارتك (مقدرتك)".

فقال له القصاص الحازم الذكي: "كلا، فما بنا من حاجة إلى ذكر أسماء اللصوص، وليس لهذا أقل خطر (لا قيمة له)، وحسبنا أن نهتدي إلى ما ضاع من الكنز، وأن نتعرف ما سرق، لا من سرق!".

8- إصرار الملك

فظن الملك أن قصاص الأثر عاجز عن تعرف السارقين. ولم يكن القصاص جاهلاً حقيقة الأمر، ولكن إخلاصه وحبه مليكه قد منعه أن يفضي بسر اللصين (على ملأ) جمع من الرعية والخاصة وأعيان الحاشية. فقد أدرك القصاص الخطر الذي يهدد ملك بنارس ووزيره، إذا افتضح أمرهما، وعرفت الرعية أنهما مثلاً دور السارقين.

ولكن ملك بنارس لم يقدر للفتى (لم يشكر له) هذا الإخلاص، ولم يتبصر عاقبة أمره، وأبى إلا أن يصرّ على تحقيق طلبته، فقال للقصاص غاضباً:

"لن أثق بمقدرتك، ولن أؤمن بجدارتك (كفائتك) بعد الآن، ولن أمنحك ما تتقاضاه مني كل يوم من أجر كبير، إذا عجزت عن تعرف اللصوص، وأخفقت في الاهتداء إلى أماكنهم.

وإني لأقسم بتاجي وسيفي هذين لأنتقمنّ من أولئك اللصوص الأذال، ولأميلنّ بهم أقبح تمثيل (لأعدّبنهم أشدّ عذاب)، ولأجعلنّهم عبرة لكل من تسوّل له نفسه (تزين وتيسر له) سرقة هذه الكنوز".

فأدرك القصاص الذكي حينئذ أن ملك بنارس قد أخرج الغيظ والحقد عن جادة الحزم (طريقه)، وطوّح به الكيد إلى هاوية الشقاء؛ فقال- ليغريه بتوكيد قسمه مرة أخرى- أمام حاشيته وخاصته:

"احترس يا مليكي، وتدبر ما تقول، ثم خبرني في صراحة: ألا تزال مصرأ على تعرف السارقين والتتكيل بهم (إيدائهم)؟"

فقال له الملك: "أقسم بشرفي لأنكّن بهم تنكياً، ولأعدّبنهم عذاباً لا أعذبه أحداً".

فقال القصاص بصوت جهوري (عال): "إذا كان رب الرعية وحارسها وحاميتها، وملاذ الشعب (ملجؤه) ومناظر رجائه (من يتعلق رجائه وأمله به)، وموضع ثقته، يخون الأمانة ويغدر بالمخلصين، ويكذب الناس، ويمثل معهم دور السارق، فخيرني: كيف يفعل الشعب؟ وأي جرم تقترفه الرعية (ترتكبه) بعد ذلك؟"

9- افتضاح السر

فضحك الملك ساخراً مما سمع، ولم تكفه هذه الإشارات الواضحة التي لا تحتمل تأويلاً، وأبت عليه حماقته إلا أن يندفع في تيار الغضب والكيد، دون أن يقدر العواقب الوخيمة (من غير أن يعرف النتائج السيئة ويتدبرها). وطوّح به الغرور فلم يعبأ بتحذير القصاص، وقال له في إصرار وعناد بصوب جهوري:

"إن الشعب جدير أن يعاقب المجرم أيأ كان منصبه وخطره (مهما علا مقامه)، دون أن تأخذه في الحق شفاعاة شفيع ولا لومة لائم".

فقال له القصاص، وقد يؤس من إصلاحه، وتقويم اعوجاجه:

"أظني قد أدبت واجبي ولم يبق عليّ أقلّ لوم إذا أفضيت بأسماء اللصوص بعد ذلك!"

فقال له الملك: "ما أجدرك بذلك أيها الفتى حتى أقتنع بكفايتك، وأثق بجدارتك؛ ولئن لم تفعل، لأخفضن أجرك إلى عشرة دنانير".

فقال له القصاص في صوت جهوري واضح النبرات:

"لم يسرق هذه الحلبيّ إلا أنت ووزيرك، وهذه أثار أقدامكما ناطقة بذلك، شاهدة عليكم، فكيف تقول "؟"

10- غضب الشعب

فبهت ملك بنارس ووزيره وكادا يصعقا (كاد يذهب عقلمها) من هول المفاجأ، وندم الملك على إصراره وتهوره (اندفاعه).

وغضب الخاصة وسواد الشعب، وثار ثائرهم حين ظهرت لهم جلية الأمر (حقيقته). وعزّ عليهم أن يكون راعهم وحامي ذمارهم (حارس بلادهم وأهليهم وديارهم) مدلساً (خائناً)؛ وأن يمثّل- هو ووزيره- هذا الدور الخسيس، ليخفض أجر القصاص، ويحرمه حقه الذي عاهده على أدائه إليه.

واجتمع مجلس الأمة ورجال الشوى وأعيان المدينة، وقرّ قرارهم على عزله وعزل وزيره معه، كما اجتمع رأيهم على تولية هذا الفتى الشريف على العرش، واحتفوا) احتلفوا) بتتويجه أعظم احتفاء.

وهكذا كوفئ قصاص الأثر أثمن مكافأة على براعته وصدقه وبعد نظره، وعاش مع أبيه الدرويش، دهرأ طويلاً، في صفاء وابتهاج